وإذ بدأ «ماني» موعظته في كنيسة (دَبْ) فقد أخذ «مالكوس» و«پاتيغ» يتلفّتان حولهما بقلق مترصّدين ردود فعل هؤلاء وأولئك، مترقّبين أخفى رمشة تصدر عن الكاهن، سواء بفعل الامتعاض أو بفعل الموافقة. أكان سيُصغي حتى النهاية، أم أنه لن يلبث أن يزعق فجأة: يا للهرطقة، يا للتجديف؟!.

الغريب أن شيئاً لم يحدث. فلا حماسة ولا استنكار. ولا حتى لامبالاة. وكان بالإمكان أن تُقرأ الحميّة في جميع العيون، حميّة يخالطها الحزن. وأما الكاهن فقد أصغى بوقار لا يشي بأيّ انفعال إلى أن سكت الزائر فنهض وألقى عبارة شُكْر وامتدح بلاغة «ماني» ومعرفته الواسعة بالنصوص، وبعد صلاة قصيرة تلاها الحاضرون جماعةً، أشار بانصراف المصلّين متمنّياً لهم السلامة.

وبعد أن جثا القوم ورسموا إشارة الصليب رجعوا القهقرى في حين دعا الكاهن «ماني» ورفيقيْهِ وأحد وجهاء الطائفة للحاق به إلى منزله، وهو بيت متواضع من القرميد مُلْحَق بالكنيسة.

قال:

ـ سامحونا أيها الإخوة الكرام إذا لم يكن الاستقبال الذي أعددناه لكم لائقاً بمقامكم وعلمكم. بيد أنكم قد تكونون شعرتم بالخوف الذي كان يساور جَمْع المؤمنين.

كان «پاتيغ» أشدّهم دهشة لهذا الاستهلال.

ـ ومع ذلك تبدو طائفتكم أسعد الطوائف كلها. لقد التقينا بإخوتكم في (المدائن) و(قشقر) وعشرين مدينة أخرى، ولم يكن صوت صلواتهم يُجلجل في أيّ منها.

وثنّى «مالكوس» مُؤَمِّناً: .

ـ إن السعادة التي تعرفونها نادرة. ففي الأقاليم الرومانية يُضطهَد المسيحيون، وفي الإمبراطورية الساسانية غدت عبادة النار ديناً رسميّاً، ولا يُتسامح فيها مع الطوائف الأخرى ما لم تكن قد كفّت عن استقطاب المريدين.